الفصل الاول

تطور القضية العربية قبيل وبعيد الحرب العالمية الأولى

١ ـ نشأة الحركة العربية القومية الحديثة :

أ ـ النهضة الفكرية العربية :

شهد المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطورات أقتصادية وأجتماعية كبيرة انعكست آثارها في بعث نهضة فكرية شملت مختلف جوانب الحياة في المجتمع العربي . وقد مثلت هذه النهضة الأطار الفكري الذي تنامى فيه الوعي القومي العربي ، وتدرج في نمائه في أتجاهات ثقافية الى أخرى سياسية عبّرت عن نفسها في التنظيمات والاحزاب السياسية التي شكلت فيما بعد الحركة العربية القومية . وقد لعبت هذه الحركة دوراً بارزاً في النضال القومي ورسمت عبر مسيرتها ، التي أخذت بالظهور في الثلث الأخير من القرن المنصرم ـ طموحات وأهداف الشعب العربي في التحرر والاستقلال(١) .

وقبل التعرض للحركة العربية لابد من بعض الأشارات السريعة بشأن النهضة الفكرية ، باعتبارها الأساس الذي انطلقت منه هذه الحركة . وكما تحدده الدراسات المعنية بالفكر العربي القومي فأن هذه النهضة عبرت عن عدة تيارات فكرية يمكن معالجتها بالصورة الآتية :

ـ التيار الحضاري :

ويمثل هذا الاتجاه بدايات النشاط الفكري العربي الذي يهدف الى تحديد الهوية القومية للثقافة والفكر العربيين ، وأستند في ذلك الى إحياء الأرث الحضاري العربي الزاخر بالعطاء والإبداع ، وازاحة ما لحق به من دمار في العصور السابقة والكشف عن مكنوناته العلمية والأنسانية بهدف أيقاظ وعي العرب بتأريخهم وقوميتهم . وأبرز من مثّل هذا الإتجاه ، الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٨١) وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) ، اللذان بذلا الجهود الكبيرة في احياء التراث العربي ، خصوصاً في علوم اللغة والأدب محدثين بذلك نهضة واسعة في هذين الحقلين اللذين يعدّان من أبرز مستلزمات النهوض القومي العربي[٢]

ـ التيار الديني ـ الأصلاحي :

دعا هذا الأتجاه الى التوفيق بين الدين الاسلامي ومنجزات العلم الحديث كي تتمكن المجتمعات الأسلامية من أستيعاب متطلبات العصر الحديث . وقد أكد هذا الأتجاه على الرابطة العثمانية ، ولعل أبرز من مثل هذا الاتجاه ، جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٢٥) .[٢]

ـ التيار الديني ـ القومي :

وتمثل هذا الأتجاه في الدعوة الاصلاحية التي أكدت على تغيير الأوضاع الفاسدة التي كانت تسود الدولة العثمانية ، من خلال برنامج سياسي يعتمد على أساسين هما الرابطة الاسلامية متمثلة في الدين الاسلامي ، بعد تنقيته من الشوائب والبدع والتقليد الأعمى ، ثم الخلافة التي يجب أن تعود الى العرب من قريش بأعتبارهم أجدر الأمم في حفظ الاسلام من الفساد ، وذلك لمركز الجزيرة العربية ولمكانة اللغة العربية في التفكير الأسلامي . أضف الى ذلك أن الاسلام قد نجا نسبياً من المفاسد الحديثة وأن البدوي ظل بعيداً عن الانحطاط الخلقي والخنوع الملازمين للاستبداد . وخير من مثّل هذا الأتجاه ، عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٢) الذي دعا الى خلافة عربية مركزها في الجزيرة العربية ، ووجه فكرة الاصلاح الديني بشكل يتماشى والفكرة العربية القومية . وهو بذلك يختلف عن الأفغاني لأيمانه بأن

للعرب مكانة خاصة في برنامجه الداعي الى تأسيس الدولة النموذج . وقد ضمن أفكاره . كتابيه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . و (أم القرى) .[٦]

ـ التيارات العلمانية والاصلاحية ـ الاجتماعية :

كرس هذا التيار اهتمامه بالجوانب العلمية وتطور المدنية الهائل في أوربا في هذا المجال . ودعا الى تفسير الحياة وتطورها على أساس الحقيقة العلمية . وخاطب العقل العربي للاستفادة من العلوم الأوربية لما فيها من قيمة عالية . وبيّن أن بالامكان استخراج نظام اجتماعي جديد من خلال الاكتشافات العلمية . وأن أساس هذا النظام انما هو التحسس بالمصلحة العامة . أي الوطنية التي هي حب الوطن والمواطنين الذي يجب أن يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الأخرى حتى الدينية منها .[٥] ودعا الى الفصل بين الدين والسياسة كما أولى عناية كبيرة بالمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي[٦] بكلمة أخرى كان هذا الاتجاه يعكس توجهاً علمانياً لاصلاح الأوضاع سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . ويؤكد على الاستفادة من المدنية الأوربية في وضع النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الجديد . ولعل أبرز من مثّل هذا الاتجاه شبلي شميل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) وقاسم أمين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨) وأديب أسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٤) وفرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) .[٧]

ـ التيار القومي :

وكان الهدف الذي دعا اليه ممثلو هذا الأتجاه هو أستقلال العرب عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية قومية تمتد من دجلة والفرات الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى البحر العربي . ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً . والجميع من خلاله سواسية أمام القانون . وأكد ممثلو هذا الأتجاه على وجود أمة عربية واحدة وبأن المشاكل الدينية التي تنشأ بين ابناء أديان مختلفة أنما هي بالحقيقة مشاكل سياسية تثيرها قوى خارجية لمصلحتها الخاصة . وأبرز من مثل هذا الأتجاه . نجيب عازوري (١٨٨١ ـ ١٩١٦) أحد المواطنين السوريين الذين أستقروا في فرنسا . وقد ضمّن أفكاره هذه كتابه (يقظة الأمة العربية) المنشور باللغة الفرنسية في عام ١٩٠٥ ومن خلال نشاطه الاعلامي الذي تمثل في مجلة (الاستقلال العربي) التي أخذ يصدرها في باريس منذ نيسان ١٩٠٧ رغم أنها لم تعمر طويلاً أذ توقفت عن الصدور بعد إعلان الدستور العثماني في تموز ١٩٠٨ .[٨]

ب ـ نشوء الحركة العربية القومية :

في رحم هذه التيارات الفكرية ترعرع جنين الحركة العربية وأخذ بالظهور ممثلاً في الجمعيات والتنظيمات السياسية التي شرعت تطالب بحقوق العرب القومية. وسنورد هنا أبرز هذه التنظيمات ونشاطاتها في ضوء السياق التاريخي لظهورها.

١ ـ جمعية بيروت السرية (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦) :

يرجع أول جهد منظم للحركة العربية الى عام ١٨٧٥ حينما شكل مجموعة من الشباب العربي في بيروت تنظيماً سياسياً أطلق عليه (جمعية بيروت السرية). وقد تزايدت أهمية هذه الجمعية وأتسع نشاطها حتى أصبح لها فروع في العديد من المدن السورية كدمشق وطرابلس، وصيدا. وأتخذت الجمعية طابع السرية في دعوتها للثورة على الأتراك، وذلك من خلال المناشير التي كانت تلصق على جدران المدن وهي تحمل على ظلم الأتراك وتندد بالفساد.(٩)

ومما يلفت النظر في هذه المناشير تضمنّها مفاهيم سياسية جديدة لا عهد للأفكار السائدة بها. فللمرة الأولى في التاريخ العربي الحديث تبرز الدعوة الى « الوطن السوري ». تبدأ المناشير بالنداء يا أبناء سوريا « يا أهل الوطن » وتذكّر « بالنخوة العربية » و « الحمية السورية » وتدرج مطاليب عدّها المختصون أنها كانت أول بيان مدون عن برنامج العرب السياسي. أما ماتضمنته هذه المطاليب فهي :

١ ـ منح سوريا الأستقلال متحدة من جبل لبنان وبما يضمن المصالح الوطنية.
٢ ـ الأعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.
٣ ـ أطلاق حرية نشر الأفكار والمؤلفات والصحف.
٤ ـ أستخدام القوات المجندة من أهل البلاد في المهمات العسكرية الداخلية.

واضطرت الجمعية السرية الى أن توقف عملها بعد تصاعد الأستبداد الحميدي والقمع البوليسي وهاجر أبرز مؤسسيها فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف الى القاهرة في عام ١٨٨٥ وأسسوا هناك جريدة سياسية يومية هي جريدة « المقطم » ومجلة فكرية هي « المقتطف » ليتابعوا من خلالها نشر أفكارهم التي بدأوها في بيروت.(١٠)

٢ ـ حركة وجهاء سوريا ١٨٧٧ ـ ١٨٨٠ :

حركة قام بها وجهاء بيروت وصيدا ودمشق عام ١٨٧٧ هدفها الرئيس البحث في مصير بلاد الشام والعمل على تجنيبه المصير السيء ومن أفجع صوره . الاحتلال الأجنبي . ولم ترفض هذه الحركة بقاء الخليفة العثماني . لكنها طالبت باستقلال بلاد الشام وتأجيل البت في طبيعة هذا الاستقلال لحين انجلاء الأوضاع عن الحرب الروسية العثمانية التي كانت دائرة حينذاك . اذ حددت الحركة هدفها بالاستقلال الناجز اذا ما تمخضت هذه الأوضاع عن نية أحدى الدول الأوربية فرض أحتلالها على سورية . والاستقلال الذاتي اذا ماثبت عدم وجود مثل هذه النية . فهي حركة لمواجهة الاحتلال الأجنبي بشكل خاص . وكان من أبرز زعمائها عبد القادر الجزائري وابراهيم أغا الجوهري وعلي الحر وأحمد عباس الأزهري والحاج حسين بيهم[١] . كما يرد في هذه الفترة ذكر لنشاط الجمعية الخيرية الاسلامية التي نسب اليها توزيع المناشير الثورية ضد التغلغل الاستعماري في سورية[٢] .

٣ ـ جمعيات ثقافية وأدبية (١٨٨١ ـ ١٩٠٨) :

أتسمت هذه المرحلة بعدم ظهور أي عمل سياسي بارز في المدن السورية . ولعل ذلك يعود الى سياسة السلطان عبد الحميد الثاني ـ وبالرغم من ذلك فأن المراجع تحدثنا عن تأسيس ونشاط جمعيات ثقافية وأدبية أنضم الى حلقاتها ومنتدياتها العديد من المثقفين والأدباء والوجهاء . وعلى سبيل المثال (الجمعية العلمية السورية) التي تأسست عام ١٨٥٨ والتي لم تمارس نشاطها بشكل واضح الا في عام ١٨٦٨ بسبب الحرب الأهلية في لبنان ـ ثم تأسست جمعيات علمية وثقافية أخرى ذات أهداف انسانية وخيرية في كل من طرابلس وصيدا وبيروت مثل (جمعية زهرة الأحسان) و (شمس البر) و (زهرة الآداب) و (المقاصد الخيرية)[٣] .

غير أن أبرز النشاطات الثقافية التي كانت تعبر عن مواقع المثقفين الفكرية والسياسية تلك التي ظهرت في دمشق في السنوات العشرين الأخيرة من القرن الماضي وأوائل القرن الحالي والتي شكل محورها ومحركها الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ ـ ١٩٢٠) هذه النشاطات التي عبرت فيما بعد عن نفسها وتطورت الى تنظيم

سياسي سري تمخض عنه في عام ١٩٠٣ ماأطلق عليه (حلقة دمشق الصغيرة) . وقد حددت هذه الحلقة هدفها بالسعي للقضاء على الأستبداد الحميدي وحكم السلطان المطلق وذلك بنشر الدستور المعلق . وكان أبرز من ساهم في تأسيس هذه الجمعية الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري ومحمد كرد علي وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر[١٤] .

لقد تعمق المسار السياسي لهذه الحلقة تدريجياً للدور الفعال الذي أخذت تلعبه العناصر الجديدة أمثال محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعثمان مردم وصلاح الدين القاسمي .. فقد أكدت هذه الحلقة على وضع برنامج سياسي يقضي بمطالبة الدولة العثمانية بأتخاذ نظام لامركزي يضمن للعرب حقوقهم في الحكم ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .. وقد لعب هذا النشاط دوراً في توسيع الأتصالات بين شباب دمشق وبيروت ، وكان من بين الذين أتصل بهم في بيروت عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والأمير عادل أرسلان[١٥] .

أستمرت هذه الحلقة في نشاطها وأنتقل هذا النشاط عام ١٩٠٥ ـ بانتقال بعض أعضائها ـ الى أسطنبول لاكمال دراستهم . ففي عام ١٩٠٦ أسس كل من محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وآخرين (جمعية النهضة العربية) وأتفق على أن يكون مركزها الثابت في دمشق . وقد كان لهذه الجمعية أهميتها اذ ضمت العديد من الشباب العرب الموجودين في أسطانبول والذين ستبرز أسماؤهم بعد عام ١٩٠٨ كأعضاء في حزب اللامركزية العثماني أو جمعية العربية الفتاة أو جمعية العهد أو غير ذلك من النشاطات السياسية التي لعبت دوراً واضحاً في الحركة العربية في السنوات اللاحقة .[١٦]

٢ ـ الحركة العربية أثناء وبعد انقلاب ١٩٠٨ :

أ ـ جمعية الإخاء العربي العثماني ١٩٠٨ : ـ

أستبشرت شعوب الدولة العثمانية خيرا بالإنقلاب العثماني عام ١٩٠٨ ، لما ادعى قادة الإنقلاب من مبادىء تؤكد على ضمان حقوق وحرية هذه الشعوب ـ وكانت تأمل في أن تباشر جمعية « الاتحاد والترقي » التي تزعمت الإنقلاب في تطبيق المبادىء التي نادت بها بعد الثورة . ومع عنفوان هذا الحدث وما صاحبه من تأكيد على الاتحاد والأخوة بين العناصر العثمانية ، تأسست أول جمعية عربية بأسم (جمعية الاخاء العربي العثماني) في ٢ ايلول ١٩٠٨ في اسطانبول . وقد حضر في يوم الافتتاح اعضاء من جمعية الاتحاد والترقي . وكانت اهداف هذه الجمعية المحافظة على الدستور وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان وتحسين اوضاع الولايات العربية على اساس المساواة الحقيقية مع الأجناس الأخرى في الدولة ونشر التعليم باللغة العربية والحفاظ على التقاليد العربية . وقد تقرر انشاء فروع لهذه الجمعية في الولايات العربية كما أصدرت صحيفة لنشر مبادئها وأفكارها السياسية .(٣٧)

غير أن شهر العسل التركي ـ العربي لم يدم طويلاً رغم المواقف الودية التي كان يبديها الزعماء العرب للإتحاديين . فقد تنصل هؤلاء عن وعودهم بشأن حقوق العرب ، وأتبعوا السياسة الدكتاتورية والمركزية أسلوباً في الحكم ، والأيدلوجية العنصرية فكراً لتكريس سيطرتهم على ولايات الدولة العثمانية . وكان من شأن هذه الأمور أن تجعل من العمل المشترك بين العرب والأتراك أمراً صعباً . لكن بقيت مسألة الحفاظ على الدولة العثمانية ـ هذه الفترة في الأقل ـ أمراً قائماً بالنسبة للحركة العربية .(٣٨)

لقد أنعكست مواقف الاتحاديين الأخيرة في عدة مظاهر كالحملات الصحفية والاعلامية المعادية للعرب ، أو الانتخابات غير العادلة للبرلمان العثماني ، وسياسة التتريك ، والسياسة القمعية لتحقيق أهدافهم بالقوة ... ولعل التطورات اللاحقة قد عززت عملية التباعد التدريجي بين العرب والاتحاديين ، ونعني بذلك الأنقلاب المضاد الذي عمد الى تنفيذه أنصار السلطان عبد الحميد الثاني في ١٣ نيسان ١٩٠٩ . أذ فسح هذا الانقلاب المجال لأنفراد الاتحاديين بالسلطة بعد إفشالهم له ، ودفعهم

للاستبداد . ولعل أولى الاجراءات التي أتخذوها هو حلهم للجمعيات غير التركية ومن بينها جمعية الإخاء العربي العثماني .. فكانت هذه بداية الصدع الذي حل بالعلاقات بين العرب والدولة العثمانية هذه الفترة .(١٩)

ب ـ المنتدى الأدبي ١٩٠٩ :

كانت السياسة الأخيرة سبباً في حمل الزعماء العرب على اتباع أساليب جديدة في العمل . إذ اتخذت بعض الجمعيات طابع السرية في عملها ولم يعلم الأتراك بوجود بعضها قط . وأصبح منذئذ نشر أفكار العرب القومية تتم في مجالين . تمثل المجال الأول في النوادي والجمعيات المعترف بها رسمياً . في حين تمثل المجال الثاني في المنظمات السرية . وقد أنشيء عدد من هذه الجمعيات ومارست نشاطها بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٦ .(٢٠)

وكان المنتدى الأدبي أقدم هذه التنظيمات أنشأها جماعة من الموظفين والنواب والأدباء والطلاب في أسطانبول في صيف ١٩٠٩ لتكون مقراً يلتقي فيه العرب . ولم تكن لهذا المنتدي أهداف سياسية علنية . ولكنه كان يتمتع بقسط كبير من التأثير السياسي .. وتركز عمله الأساسي في توضيح الأفكار والآراء لا في صنعها . ومع ذلك . كان لنشاطه أثر في دعم الحركة العربية وتوسيع مداها ـ وقد بلغ أعضاؤه ألوفاً أكثرهم من الطلاب(٣١) . وأنشأ له فروعاً في العديد من مدن الشام والعراق . كما أصبحت له مجلة أدبية بأسم (لسان العرب) . حتى غدا من المراكز المهمة للقاء العربي في أسطانبول . وجدير بالذكر أن العديد من أعضائه لعبوا دوراً بارزاً في الحركة العربية فيما بعد . بل واجه بعضهم حكم الأعدام عام ١٩١٥ / ١٩١٦ أمثال عبد الكريم خليل ورشدي الشمعة وصالح حيدر وسيف الدين الخطيب وعزة الجندي .(٣٢)

جـ ـ الجمعية القحطانية : ١٩٠٩ :

تأسست هذه الجمعية « السرية » في أواخر عام ١٩٠٩ بعد انشاء المنتدى الأدبي . وهدفها تحقيق مشروع جديد وجريء في الادارة العثمانية . وهو تحويل الامبراطورية العثمانية الى دولتين أحداهما عربية تتمتع بمقوماتها القومية والأخرى تركية . على أن يكون السلطان العثماني على رأس هذه الامبراطورية . وقد جاء هذا

المشروع محاولة لحل المشكلة التي أوجدتها سياسة الأتحاديين المركزية . وكان يقود هذه الجمعية الضابط العربي المعروف « عزيز علي المصري » . أما أعضاؤها فكان أختيارهم يتم بعناية ودقة . ولم يكن يسمح بالانتماء اليها ما لم تكن وطنية العضو فوق الشبهات . كما كان لها كلمة سر وأشارة خاصة لأثبات شخصية العضو . وجدير بالاشارة أن معظم الأعضاء كانوا من العسكريين ومنهم من ذوي الرتب العالية في الجيش العثماني[٢٣] أضافة الى بعض الأعضاء المدنيين من مؤسسي جمعية « المنتدى الأدبي » . وقد أصبح للجمعية فروع في خمسة مراكز اضافة الى فرعها في القسطنطينية .[٢٤]

أن أهمية هذه الجمعية في الحركة العربية هي أنها تمثل أول محاولة معروفة لضم الضباط العرب في الجيش العثماني وتنظيم جهودهم بما يخدم القضية العربية . غير أن هذه الجمعية لم تعمر طويلاً رغم نشاطها البارز لأكتشاف سرها بسبب خيانة أحد أعضائها للثقة . مما دفع بأعضائها الى تجميد نشاطهم . فأنحلت الجمعية تدريجياً .[٢٥]

د ـ جمعية « العربية الفتاة » :

تعد هذه الجمعية من أبرز التنظيمات السياسية (السرية) في الحركة العربية . أسسها في ١٤ تشرين الأول ١٩١١ عدد من الطلاب والمثقفين العرب الموجودين في باريس ، أمثال عوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني ورستم حيدر وعبد الغني العريس وتوفيق السويدي . وأمتازت هذه الجمعية بدقة التنظيم وسريته لدرجة كبيرة الأمر الذي يفسر أستمرارها في العمل دون اكتشافها حتى اعلان الثورة العربية عام ١٩١٦ .[٢٦]

أما البرنامج السياسي للجمعية فكان يطالب بحقوق العرب ومصالحهم القومية وتطوير البلاد من النواحي المختلفة في اطار الدولة العثمانية .[٢٧] على أن هذه الجمعية تجاوزت هذا الهدف وطالبت بأستقلال العرب عن الدولة العثمانية والتخلص من أية سيطرة أجنبية . وقد جاء هذا التحول بسبب سياسة الاتحاديين التي أخذت تتجاهل حقوق العرب القومية كما سيتضح في حينه[٢٨] . وقد أنتقلت الجمعية الى بيروت عام ١٩١٣ ثم الى دمشق في العام التالي . وفي دمشق أخذت تمارس دورها الفعال في التخطيط للثورة العربية[٢٩] .

هـ ـ حزب اللامركزية الادارية العثماني :

تأسس هذا الحزب في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ ، وكان هدفه يقوم على تطبيق اللامركزية في الادارة العثمانية ومنح الولايات العربية قسطاً من الاستقلال الذاتي لتتمكن من تطوير امكانياتها واصلاح أوضاعها المختلفة . ولتحقيق ذلك ، دعا الحزب الى أن تكون اللغة العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية ، وأن تسند معظم الوظائف في هذه الولايات الى عناصر عربية وأن تستشار السلطات المحلية عند تعيين الموظفين . كما طالب الحزب بحصر الخدمة العسكرية في داخل الولاية في زمن السلم ، وأن تخصص بعض الواردات المحلية لسد الحاجة المحلية ، وتوسيع صلاحيات مجالس الولايات والاستعانة بمستشارين أجانب لاعادة تنظيم بعض المرافق الادارية ..(٣٠)

وقد تولى الاشراف على تنظيم الحزب لجنة مؤلفة من عشرين عضواً ، أنبثقت منها هيئة ادارية مكونة من ستة أعضاء . وتأسست للحزب فروع في العديد من الولايات العربية ، وكان ثمة اتصال بينها والجمعيات السياسية العربية الأخرى . ولم تمض سنة حتى أصبح حزب اللامركزية أفضل من يمثل أهداف العرب وأمانيهم من حيث دقة التنظيم وقوة التأثير(٣١) .

والحقيقة أن أهمية الحزب تعود الى برنامجه الذي شكل نقطة التقاء بين مختلف الاتجاهات الليبرالية والاصلاحية في المشرق العربي . فاللامركزية الادارية التي دعا اليها الحزب شكلت القاسم المشترك بين المثقفين والمفكرين النازعين للاستقلال والاصلاحيين المعارضين للتتزيك . ومن جهة أخرى شكلت أيضاً مطالب الاصلاح مرحلياً العامل الموحد بين هذه الاتجاهات .(٣٢)

لقد كان لنشاط الحزب ضد السياسة المركزية والتتريك أثر في خلق أجواء مماثلة من النشاط السياسي في العديد من مدن المشرق العربي ، وقد زاد في ذلك صعود « حزب الحرية والائتلاف العثماني » ـ المعارض لسياسة الاتحاديين ـ الى السلطة ، مما أشاع مناخاً سياسياً ملائماً لقيام عدد من الحركات والدعوات الاصلاحية بوحي من برنامج حزب اللامركزية(٣٣) .

وكان من أبرز مؤسسي هذا الحزب رفيق العظم ورشيد رضا واسكندر عمون وفؤاد الخطيب وسليم عبد الهادي وحافظ السعيد وآخرون .(٣٤)

و ـ حركة الاصلاح البيروتية :

تعد هذه الحركة تعبيراً عن برنامج حزب اللامركزية الادارية . وقد تمثلت في الهيئة السياسية التي أطلق عليها أسم « لجنة الاصلاح » التي تأسست في بيروت في أواخر عام ١٩١٢ . وكانت هذه اللجنة مؤلفة من (٨٦) عضواً[٣٥] . أما هدفها فقد جاء ـ كما نوهنا ـ تطبيقاً لبرنامج حزب اللامركزية الساعي لتحقيق الاستقلال الذاتي للولايات العربية . وقد حددت اللجنة مطاليبها في ضوء هذه المبادىء فيما يتعلق بولاية بيروت[٣٦] .

وقد تفاقم نشاط هذه اللجنة وأنتهى الى الصدام مع السلطات العثمانية . مما دفع بهذه السلطات في نيسان ١٩١٣ الى حل هذه اللجنة وغلق مراكزها . الأمر الذي أثار سخط وهياج سكان الولاية الذين وقفوا في وجه السلطات العثمانية . وأنتهجت السلطات العثمانية سياسة العنف ضد المعارضة فزاد بذلك الهياج وأدى الى قيام المظاهرات العامة في الولاية . فلجأت الحكومة الى نوع من المرونة . ووعدت باجراء الاصلاحات المطلوبة .. غير أن هذه السياسة كانت وقتية لأمتصاص سخط السكان . وخطوة مقنعة نحو تكريس السلطة المركزية في الولاية[٣٧] .

ز ـ المؤتمر العربي الأول في باريس حزيران ١٩١٣ :

في الوقت الذي كان فيه الاتحاديون يواصلون تطبيق سياستهم المركزية . كانت باريس تشهد تحركاً عربياً لمناقشة القضية العربية . فقد عمد عدد من المثقفين والطلبة العرب المقيمين في باريس الى عقد مؤتمر عربي عام في حزيران ١٩١٣ ، لتحديد الموقف العربي تجاه سياسة الاتحاديين من جهة واطلاع الرأي العام العالمي على القضية العربية من جهة أخرى . ولعل أبرز من ساهم في تنفيذ هذه الفكرة . عبد الغني العريس ومحمد طبارة وتوفيق فايد وجميل مردم وعوني عبد الهادي وتوفيق السويدي وآخرون .[٣٨]

لقد تبنى المسؤولون عن إقامة المؤتمر أهداف حزب اللامركزية المشار اليها سلفاً . وعليه فإن اللجنة التحضيرية للمؤتمر آرتأت أن يكون حزب اللامركزية هو المشرف على المؤتمر . ووجهت الدعوة للحزب تطلب فيه أن يختار من بين زعمائه ممثلاً يرأس جلسات المؤتمر . أما أبرز النقاط التي أتفق على بحثها في المؤتمر

فتكاد تنحصر في حقوق العرب للحصول على نوع من الاستقلال الذاتي ربما مطالبهم القومية . ثم الإصلاح على أساس من الأدارة اللامركزية[٢٦] .

انعقد المؤتمر في الفترة ١٧ ـ ٢٣ حزيران وقد حضره ممثلون عن العديد من مدن المشرق العربي . أما رئاسته فقد عهدت الى عبد الحميد الزهراوي ممثلاً عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية . وقد أتسمت مناقشات المؤتمر بالصراحة والاتزان وعكست القرارات التي خرج بها الرغبة في الاعتدال . وكانت ترديداً للمبادئ التي أعلنها حزب اللامركزية مع التأكيد على مطالب العرب بالحقوق السياسية الكاملة ونصيبهم في الاشتراك أشتراكاً فعالاً في ادارة شؤون الدولة .[٢٧]

لقد كان لنشاط المؤتمر صداه الواسع والمؤثر مما دفع بالحكومة العثمانية للعمل على تحجيم دوره وأحتوائه من خلال أساليب ملتوية انطوت كما يبدو على بعض قادة الحركة العربية . فقد بعثت الحكومة العثمانية ممثلاً عنها للاجتماع بأعضاء المؤتمر . وقد وقع معهم فعلاً اتفاقاً وافق فيه على معظم قرارات المؤتمر ـ وعقب ذلك . صادق السلطان العثماني في ١٨ آب ١٩١٣ على هذا الاتفاق ـ غير أن هذه الخطوة التي أتخذتها الحكومة العثمانية انما كانت لامتصاص الاندفاعة التي أتسمت بها الحركة العربية تلك الفترة . اذ سرعان ما أنقلبُ الاتحاديون على اتفاقهم الأخير وشرعوا في تصفية الحركة العربية بمختلف الأساليب سواءاً من خلال الحملات الاعلامية . أو من خلال السياسة الشديدة تجاه الجمعيات العربية . أو بإبعاد القيادات العربية العسكرية من الولايات العربية أو التأكيد على سياسة التتريك ومطاردة المعارضين للأتحاديين .[٢٨]

لقد أثارت هذه السياسة حالة من النفور والاشمئزاز ما يعد نقطة تحول . فبعد أخفاق الحركة العربية في تحقيق مطالبها انتكست موجة الشعور المتفائلة وأصبحت مراراً وبأساً . ولم تقم بعد ذلك محاولة للأتفاق مع الأتحاديين . ومما زاد الطين بله أن الأتحاديين بعد أن أحرزوا هذا النصر بالأحتيال أخذوا يثبتون مكاسبهم بضروب من القسوة بلغت سوءاً من التدبير مبلغاً كبيراً[٢٩] . وقد زاد من حدة ذلك الأوضاع المتأزمة التي نجمت عن توتر الجو الدولي وأحتمالات أندلاع الحرب العالمية الأولى وأشتراك الدولة العثمانية فيها . وما صاحب ذلك من أجراءات متشددة وأساليب صارمة أتبعت ضد الحركة العربية هذه الفترة كما ستبين .

خ ـ جمعية العهد العربية :

عمد الجناح العسكري في الحركة العربية الى تشكيل تنظيم عسكري (سري) من القادة العسكريين العرب لمواجهة سياسة الأتحاديين . ويعود أمر تشكيل هذه الجمعية الى مؤسسها القائد « عزيز علي المصري » الذي شرع في تأسيسها أواخر عام ١٩١٣(١٣) . وقد سميت بالعهد لأن أنتماء أي عضو لها يعد بمثابة « عهد » بينه وبين الله لخدمة الوطن . أما أهدافها فتمثلت في الحصول على الأستقلال الداخلي للأقطار العربية ، وعلى حد قول أحد أعضائها ، أنهم لم يكونوا يفكرون في الأنفصال وانما « الحصول على أدارة عربية محلية ولغة عربية رسمية على أن نشترك والعنصر التركي في أدارة سياسة الدولة العامة » .(١٤)

أقتصرت الجمعية على العسكريين ولم يقبل منها الا عدد قليل جداً من العناصر المدنية الموثوق بنزاهتها . ولما كان العنصر العراقي أكثر العناصر عدداً في الجيش العثماني ، كانت له قوته في الجمعية . هذا وقد أصبح للجمعية فروعها في العديد من المدن العربية كبغداد والموصل والبصرة ، وبيروت ، وحلب ، ودمشق ، فأتسع نشاطها حتى أصبحت بالنسبة للضباط مثل جمعية الفتاة العربية بالنسبة للمدنيين . ومع ان الجمعيتين لم تعلم أحداهما بوجود الأخرى في بداية الأمر ، غير ان نشاط كل منهما في ميدانها كان متمماً لنشاط الثانية ، الى أن وافت سنة ١٩١٥ فأتصلت الجمعيتان في مدينة دمشق ووحدتا وسائلهما معاً لأيقاد الثورة العربية(١٥) بعد أتصالهما بالشريف حسين بن علي شريف مكة وتنسيق العمل معه للانتفاض بوجه الأتحاديين كما سيتضح .

وجدير بالاشارة أن الجمعية كانت قد تعرضت في مطلع عام ١٩١٤ لمحاصرة السلطات العثمانية وضغوطها بعد أن تسربت بعض المعلومات عن نشاطها ، وكان أبرز الخطوات في هذا السبيل ، اعتقال زعيمها عزيز علي المصري في ٩ شباط ١٩١٤ وتحميله بعض التهم الملفقة . كما قامت السلطات العثمانية باجراءات أخرى تمثلت في أبعاد القادة العرب من الولايات العربية والاستغناء عن خدمات بعضهم . الى جانب الأمعان في سياسة الشدة والصرامة تجاه قادة الحركة العربية عموماً ، والتي زادت حدتها بعد تورط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى(١٦) .

٢ ـ الثورة العربية الكبرى :

أ ـ التخطيط للثورة :

خضع المشرق العربي لظروف الحرب العالمية الأولى بعد أشتراك الدولة العثمانية فيها الى جانب المانيا . وقد تعرضت هذه المنطقة بسبب ذلك لعدة تطورات كان لها الأثر في النتائج التي حصلت فيما بعد . فقد تحملت جزءاً من أعباء الحرب وما تقتضيه من التزامات وأمكانيات عسكرية وأقتصادية . بل كانت منطقة حرب فعلية للقوات العثمانية التي كانت تهدف الى السيطرة على قناة السويس وأنتزاع مصر من يد بريطانيا وتهديد مواصلاتها في هذه المنطقة المهمة . هذا من جهة أما من جهة ثانية فأن التطورات السياسية الداخلية شهدت نشاطاً متصاعداً للحركة العربية رغم الضغوط التي كانت تمارسها السلطات الأتحادية كما تقدم . وأخذت التنظيمات العربية السرية تتحصن في سوريا لممارسة دورها السياسي ، ولم تقف الصعوبات دون نشاطها بل زادتها أصراراً بسبب الظرف الدقيق الذي أخذ يحيط بالمنطقة . أذ أصبح مستقبل البلاد العربية معرضاً لخطر جديد بعد اشتراك الدولة العثمانية في الحرب لما سببه من تزايد في الأطماع والخطط الاستعمارية للسيطرة على المنطقة . لكن التنظيمات العربية تمكنت ـ رغم هذا الظرف ـ من تحديد رؤيتها من المستقبل وذلك من خلال التأكيد على استقلال العرب ومنع أي تدخل أجنبي للسيطرة على البلاد العربية .

لقد كانت هذه الظروف بما رافقها من الأساليب التعسفية والسياسية العنصرية التي مارسها الأتحاديون في الولايات العربية ، سبباً في تصاعد نشاط الحركة العربية وتفكيرها بالانفصال عن الدولة العثمانية وبالذات بعد أن شدد الأتحاديون من سياستهم المركزية وبطشهم بالزعماء العرب الذين كانوا يمارسون نشاطهم السياسي في سوريا . وقد وجدوا في فكرة التعاون مع الشريف حسين بن علي شريف مكة وترشيحه لزعامة الثورة أمراً ضرورياً من ناحيتين الأولى تتمثل في مكانته الدينية بين العرب والمسلمين بأعتباره من سلالة الرسول (ص) والناحية الثانية أن علاقة الشريف بالأتحاديين كانت في توتر مستمر بسبب عدم انصياعه للسياسة المركزية التي حاولت الدولة العثمانية تطبيقها في الولايات العثمانية . وعلى أية حال فقد أكتملت صيغة التقارب بين الزعماء العرب والشريف حسين عن طريق الأمير فيصل الذي ناب عن والده الشريف في الاتصالات التي جرت بين جمعيتي العهد والعربية

الفتاة وهو في طريقه الى ومن الاستانة . وتمخضت هذه الأتصالات بشكل نهائي عن ميثاق دمشق الذي أتفقت عليه الحركة العربية وسلمته الى الأمير فيصل كي يسلمه لوالده للعمل بموجبه كأساس للأتفاق مع بريطانيا والحصول على دعمها لاستقلال العرب .(١٧)

وكان هذا الميثاق يمثل محاولة القادة العرب للمحافظة على استقلال أقطار المشرق العربي ، ولم تكن أهميته تقتصر على ما تضمنه من شروط بل لأنه أستخدم من قبل الشريف في مفاوضاته مع المندوب السامي البريطاني في القاهرة السير « هنري مكماهون » بأعتباره يمثل مطاليب العرب وأهدافهم . ولعل أبرز نقطتين أوردتهما الوثيقة استقلال العرب أستقلالاً كاملاً بعيداً عن أي تدخل أجنبي ثم التحالف مع بريطانيا .(١٨)

ب ـ مراسلات حسين ـ مكماهون وأعلان الثورة العربية عام ١٩١٦ :

قادت هذه الدعوة الجريئة التي وجهها الزعماء العرب الى الشريف حسين وأبنائه الى عقد أجتماعات متواصلة لمناقشة الموقف وأنتهت بالموافقة على أجراء الاتصالات مع السلطات البريطانية في القاهرة . فجاءت رسالة الشريف حسين الأولى الى السير « هنري مكماهون » في تموز عام ١٩١٥ ، وكانت فاتحة للمراسلات المتبادلة بين الجانبين والمعروفة بمراسلات حسين ـ مكماهون والتي انتهت في آذار ١٩١٦ .(١٩)

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً بشأن هذه المراسلات ، من الضروري الاشارة الى ان هذه المراسلات التي تمت عام ١٩١٥ انما قد تم التمهيد لها باتصالات سابقة بدات في شباط ١٩١٤ بين الأمير عبدالله نجل الشريف حسين واللورد كتشنر المعتمد السامي البريطاني في القاهرة ـ وقد جاءت هذه الأتصالات التمهيدية أنعكاساً لطبيعة العلاقة المتردية بين الشريف حسين والدولة العثمانية كما نوهنا . أما ما تضمنه هذا اللقاء فينحصر في مطالبة الأمير عبدالله وقوف بريطانيا الى جانب والده ، حالة أصطدامه بالدولة العثمانية .. غير ان الظرف لم يكن ملائماً لتشجيع مثل هذا الاتفاق مما يفسر الحذر الذي أبدته السلطات البريطانية في القاهرة في حينها تجاه طلب الأمير عبدالله . على أن الموقف البريطاني أبقى الباب مفتوحاً أمام الأسرة الهاشمية لتبادل وجهات النظر بهذا الشأن ، ومعارضة بريطانيا للحركات التي تعيق الأمن والسلام في الحجاز ..(٢٠)

على أن هذا الحذر أتسم به الموقف البريطاني أنما كان أنعكاساً لطبيعة العلاقات العثمانية البريطانية ، فلم يكن دخول الدولة العثمانية الحرب حينئذ جانب المانيا مسألة أكيدة ، غير ان الأشهر التي تلت الأتصالات الأولى بين عبدالله وكتشنر شهدت تبدلاً واضحاً في الموقف . فقد تعاظم النفوذ الألماني في الاستانة وتزايدت احتمالات أنزلاق الدولة العثمانية في الحرب جانب المانيا ، الأمر الذي أستدعى أستئناف المفاوضات مجدداً مع الشريف حسين وبالسرعة الممكنة ، فبدأت الجولة الثانية من هذه الأتصالات في تشرين الأول ١٩١٤ ، أظهر فيها الجانبان تفاهماً واضحاً للتعاون بينهما . فتعهدت بريطانيا بالدفاع عن الحجاز ضد أي اعتداء خارجي وعدم التدخل في شؤونه الداخلية ، ووقوفها جانبه عند مبايعته بالخلافة ، في حين تعهد الأمير عبدالله بالتمسك بالمقترحات البريطانية والوقوف ضد من يحاول الحاق الضرر بمصالحها .. والعمل على أستغلال الفرصة بوجه الأتراك .(٥١)

أذن كانت هذه الأوضاع السائدة في الحجاز هي التي سبقت مراسلات الشريف حسين مع السير « هنري مكماهون » . أما جوهر هذه المراسلات فقد تضمن مطاليب العرب القومية والداعية لاستقلال البلاد العربية وأعتراف بريطانيا بهذا الأستقلال ، وحددت المنطقة المعنية بالاستقلال باقطار المشرق العربي الحالي ، التي يحدها شمالاً الحدود الجنوبية التركية الحالية تقريباً ، وشرقاً أيران وجنوباً البحر العربي ، (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي) وغرباً البحر الأحمر والبحر الابيض المتوسط . وفي مقابل ذلك أعترف الشريف بأفضلية بريطانيا في كل المشاريع الأقتصادية في البلاد العربية ، وأن تعلن الثورة ضد الدولة العثمانية ، ويسهم بالضرورة في دعم الموقف الحربي ضد القوات العثمانية .(٥٢)

ومع أن السير مكماهون وافق ـ نيابة عن حكومته ـ على المطاليب العربية ، لكنه حاول الحصول على أعتراف الشريف حسين بالوجود الخاص لكل من بريطانيا وفرنسا في أقطار المشرق العربي ، الأولى في العراق وفلسطين والثانية في بلاد الشام . والحقيقة أن الشريف لم يوافق على مثل هذا الطلب ، وانما اكتفى بموافقته على مركز كلتا الدولتين في المناطق المعنية فترة الحرب فقط كأجراء تتطلبه الضرورات الحربية لا غير .(٥٣) وفي آذار ١٩١٦ أختتمت المراسلات بين الطرفين وتم الأتفاق النهائي لمباشرة العمل المشترك ضد الدولة العثمانية . وبعد ما يقارب الثلاثة أشهر من الأستعدادات والتحضيرات للثورة أنهى الشريف كل أحتمالات التفاهم مع الأتحاديين وأعلن الثورة في ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ / ١٠ حزيران ١٩١٦ حينما أطلق

الرصاصة الأولى للثورة من شرفة داره أيذاناً بأعلانها، لتبدأ من مكة وتستمر طوال عامين أكتسحت فيها القوات العربية ـ تدعمها مساعدات بريطانيا ـ معظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز، وأسهمت بشكل فعال الى جانب قوات الحلفاء في تحرير الشام ودخول دمشق في تشرين الاول ١٩١٨ وأعلان الحكومة العربية فيها برئاسة الأمير فيصل بن الشريف حسين. (*)

١٩١٨/١٠/١

٤ ـ أتفاقية سايكس ـ بيكو وأثرها على مستقبل العرب :

كانت الدول الأوربية (بريطانيا، فرنسا، روسيا) تسعى منذ القرن التاسع عشر في الأقل لأقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، وقد شجعها على ذلك حالة الضعف التي بلغت حداً دفع البعض الى تسميتها بالرجل المريض. وكانت بريطانيا تقف حائلاً دون الأسراع في تنفيذ هذا المخطط لضمان مصالحها ومواصلاتها في هذه الممتلكات وخشيتها من ان تتعرض هذه المصالح لخطر الدول المنافسة لها. غير ان دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا أنعش المشروع الاستعماري السابق ودفع بهذه الدول للتلويح عن مصالحها وأهدافها في المنطقة. فحددت روسيا مطامعها بالسيطرة على القسطنطينية (اسطنبول حالياً) ومضيقي البسفور والدردنيل، فيما طالبت فرنسا ببلاد الشام، وبدأت بريطانيا تزيد من خططها لضمان مصالحها التقليدية في المنطقة ـ كما كان لايطاليا أطماعها في آسيا الصغرى. وعلى أية حال، فرضت هذه المطامع حالة من الوئام المصلحي للتفاهم وتوزيع الغنائم، وبدأت المفاوضات التمهيدية بهذا الشأن في آذار ١٩١٥ بين الدول الرئيسة الثلاث وأستمرت المفاوضات بين هذه الأطراف ما يقارب العام حتى أسفرت عما سمي فيما بعد اختصاراً باتفاقية سايكس ـ بيكو نسبة الى كل من المندوبين السياسيين اللذين مثلا بلادهما في قسم من المفاوضات، وهما السير مارك سايكس عن الجانب البريطاني والمسيو جورج بيكو عن الجانب الفرنسي. وقد تمّ التوقيع على الاتفاقية رسمياً في ١٦ مايس ١٩١٦. (**)

أحتفظت فرنسا بموجب الأتفاقية بالقسم الأعظم من بلاد الشام (سوريا ولبنان حالياً) وبحصة غير صغيرة من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل في العراق (وقد لونت هذه المناطق باللون الأزرق على الخريطة) أما حصة بريطانيا (التي لونت باللون الأحمر) فتألفت من شريط يمتد من أقصى جنوب سوريا عبر العراق حيث يشمل ولايتي بغداد والبصرة وكل المنطقة الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة

المخصصة لفرنسا وهي تضم ايضاً ميناثي حيفا وعكا مع جزء صغير من المنطقة الداخلية . وهناك منطقة أخرى (لونت باللون البني) تضم حصة تعرف اليوم باسم فلسطين ، وقد أستبقيت لتكون تحت حكم دولي خاص .(٩٦)

ان المناطق التي خضعت لكل من فرنسا وبريطانيا والمنطقة الدولية المعلمة باللون البني تشمل كلاً من سوريا والعراق وتقدّر حسب الأتفاقية وضعها تحت نوع من الوصاية الأوربية . وكل منطقة من المناطق الفرنسية والبريطانية ، تغدّ مكونة من قسمين متمايزين حسب شكل الحكومة التي ستقام في كل منهما . فأما حصة فرنسا فقسمت الى قسمين أحدهما أزرق والثاني يشار له بالحرف (أ) . وجعلت حصة بريطانيا في قسمين أحدهما أحمر والثاني يرمز له بالحرف (ب) . وفي القسمين الأزرق والأحمر ستكون الدولتان حرّتين في اقامة أدارة خاصة بهما . ونصت الاتفاقية على أن تكون الادارة في أ و ب تحت سيادة عربية تعترف بها وتسندها الدولة المختصة بكل واحد من هذين القسمين ، على ان يكون لفرنسة أو انكلترا حسبما تقتضي الحال الأولوية في المشروعات الأقتصادية وحق الانفراد في تزويد الأدارة العربية المقبلة بما تحتاجه من موظفين ومستشارين اجانب .(٩٧)

أما الشروط الخاصة التي وضعت بشأن وضع فلسطين الخاص فأنها كانت نتيجة الأهداف المتصارعة بين الدول الثلاث (أنكلترا ، فرنسا ، روسيا) فقد أكدت فرنسا على رغبتها في أن تكون المنطقة الواقعة تحت نفوذها هي كل سوريا (بما في ذلك فلسطين) ، أما بريطانيا فعارضت ذلك لأسباب أولهما رغبتها في السيطرة على خليج عكا ـ حيفا لكي يكون لها منفذ يصل العراق بالبحر المتوسط ، والثاني أنها لم ترغب في أن توطد فرنسا أو اي دولة أخرى نفوذها على مقربة من قناة السويس في وقت تزايدت فيه أهمية هذه المنطقة الستراتيجية للمواصلات البريطانية ولضمان ذلك فان بريطانيا فسحت المجال لأن تحقق فرنسا نفوذها وتحتفظ بالمناطق الساحلية في شمال سورية .(٩٨)

من جهة أخرى فأن أهتمام بريطانيا بفلسطين أنما كان أيضاً أنعكاساً للمخطط الذي عملت على تنفيذه الحركة الصهيونية بالتعاون مع الحكومة البريطانية هذه الفترة . ففي تشرين الثاني ١٩١٤ أتصل (هربرت صموئيل) أحد زعماء الصهيونية بأدواردغراي وزير خارجية بريطانيا وحثه على تبني قيام دولة يهودية في فلسطين تكون حليفة لبريطانيا وعلى مقربة من مصر ومن قناة السويس ، وان يسعى دون

قيام دولة عربية مستقلة في سوريا والعراق، لأن مستقبل تحقيق الدولة اليهودية يتوقف على مدى قوة جيرانها العرب أو ضعفهم. وكان أن وافق غراي على الوجهة العامة لهذا المشروع وتم الاتفاق بينه وبين اللجنة الصهيونية في لندن على أن لا تصفي فلسطين استقلالها السياسي قبل أن يدخل اليها عدد من اليهود لانهم فيها آنذاك قلة ضئيلة ضعيفة لا تتعدى ٤ ٪ من السكان. وبعد سلسلة من مداخلات بريطانيا مع فرنسا وافقت فرنسا على قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين وبعد مداولات وأخذ ورد حول مضمون النص الذي يمكن أن يشكل وعداً رسمياً من قبل الحكومة البريطانية وضع النص - أو « وعد بلفور » الذي أعلن في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ (٣).

ولم يتوقف الأمر على فرنسا وبريطانيا ومطامعها للحصول على فلسطين، فقد طالبت روسيا هي الأخرى بذلك، على أنها اقتنعت في النهاية بوضع فلسطين تحت اشراف دولي وبهذا الاقتراح انحازت بريطانيا الى جانب روسيا واضطرت فرنسة الى الاذعان وبذلك خلقت المنطقة البنية على الخريطة. (٤)

بحسب ما ورد في الاتفاقية ايضاً استعداد الدولتين للاعتراف بـ « أستقلال » والقيام في منطقة دولة عربية أو اتحاد فيدرالي في منطقة ا و ب وتكون لهما الافضلية - كل في منطقته - في أقامة المشاريع ومنح القروض وتقديم المستشارين بناء على طلب الحكومة العربية. وتعهدت انكلترا بالموافقة على استثمار مياه نهري دجلة والفرات بين المنطقتين أ و ب كما اتفق الطرفان على ان تكون الاسكندرونة وحيفا ميناءين مفتوحين امام تجارة فرنسا وانكلترا. وتقرر بموجب البندين السادس والسابع ان يقوم الانكليز ببناء خط حديدي من حيفا باتجاه بغداد ويقوم الفرنسيون ببناء خط مشابه من حلب بالاتجاه نفسه على ان لا يجري العمل في بناء سكة حديد بغداد الى الجنوب من الموصل ضمن المنطقة (أ) والى الشمال من سامراء ضمن المنطقة (ب). ونص البند الثامن من الاتفاقية على ضرورة الحفاظ على التعريفة الكمركية التركية على مدى عشرين عاماً شريطة ان لا يحق للجانبين القيام برفعها او تبديلها دون موافقة مسبقة من الجانب الآخر. واتفقت الدولتان في البند التاسع على عدم السماح لطرف ثالث بالاستحواذ على أي جزء من شبه الجزيرة العربية أو القيام ببناء قواعد في الجزيرة الواقعة على الجانب الشرقي من البحر الاحمر. وأخيراً نصت الاتفاقية في بندها العاشر على أن تجري المفاوضات مع العرب بشأن حدود الدولة العربية) أو أتحاد الدول (العربية) بأسم الدولتين ونصت في بندها الحادي

عشر الأخير » على أن تقوم الدولتان معاً بوضع الضوابط على تصدير السلاح للمناطق العربية »(١)

لقد كانت اتفاقية سايكس - بيكو مثالاً صارخاً على مكر وخداع وجشع الدول الكبرى . وبقدر ما أنطوت عليه هذه الاتفاقية من جشع وقبح السياسة الاستعمارية وتلاعبها بمقدرات الشعب العربي ، لعبت دوراً خطيراً . في تدمير صورة المستقبل العربي الذي كافح من اجله العرب في الوحدة والأستقلال . فوحدة المشرق العربي كانت موجودة بكامل مقوماتها القومية والتاريخية ، وحافظت على بقائها رغم ما عانته في العهد العثماني ، ولم يكن أمام العرب الا أن ينتظروا نضوج الظروف والعمل على تنفيذ ما تصبو اليه أنفسهم وقد تبلورت آمالهم القومية وتصاعد نشاطهم كلما ادركوا طبيعة الاوضاع التي اخذت تحل في الدولة العثمانية . والأخطار المحدقة بمستقبلهم جراء تكالب الدول الاستعمارية التي كثفت من نشاطها وخططها لتقسيم الممتلكات العثمانية . وضعوا لحماية مستقبلهم وضمانه قراراتهم موضع التنفيذ الحرب العالمية الأولى وأنتفضوا لنيل الاستقلال وتحقيق وحدتهم .

غير ان هذه الأهداف لم تكن تتماشى بطبيعة الحال ومصالح الدول الاستعمار في المنطقة ، اذ ان قيام دولة عربية واحدة في بقعة تعد من أخطر مناطق العالم حيث اهميتها الستراتيجية والأقتصادية ، يعني ضرب المصالح الاستعمارية في الص وهذا ما كانت تؤكد عليه السياسة البريطانية منذ القرن التاسع عشر . كما أن و الشعب العربي اصبحت تتناقص جذرياً والخطط الصهيونية الرامية الى اقامة الو الصهيوني في فلسطين ، فضلاً عن كون هذا الهدف يتعارض في الأساس وطمو الدول الاستعمارية الرامية لفرض سيطرتها واحتلالها لهذه المنطقة وتوجيهها إرادتها اطول فترة ممكنة من الزمن .

ان الخطورة لا تكمن فيما حققته هذه الاتفاقية في حينها من مكاسب أنية حسب ، بل بما تركته من آثار مؤلمة وخطيرة في مستقبل الواقع العربي . اذ ت المنطقة الى أجزاء متناثرة تتناهبها الاطماع الاستعمارية وأصبح التمزق وال ظاهرة موجودة بين أقطار الأمة الواحدة . كما كان من نتائج هذه الأتفا خلقت كياناً غريباً على الوطن لعربي ذلك هو الكيان الصهيوني في فلسط يكون جسراً لعبور الامبريالية للمنطقة ويقوم بتنفيذ سياستها الرامية في الا تمزيق الوطن العربي الى كتل ومواقف متضاربة وبالتالي اخضاعه ونهب

ولا تحتاج هذه الحقيقة الى تفصيل اذ ان وقتنا الحاضر لدليل واضح على ما تركته هذه الاتفاقية من آثار سيئة في واقع العرب وتطلعاتهم للمستقبل .

غير ان هذه الاتفاقية بقدر ما خلقت من نتائج سلبية ، خلقت بطبيعة الحال ، مواجهة عربية تصدت للمخططات الأستعمارية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى وتمكنت من ان تقطع شوطاً جاداً في طريق الوحدة والاستقلال .

لقد ظلت الاتفاقية أمراً سرياً ولم يعرف بها العرب وفي مقدمتهم الشريف حسين الذي تزعم الثورة عام ١٩١٦ . ومع أن كلاً من السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو قد التقيا بالشريف حسين في مايس ١٩١٧ الا ان احداً منهما لم يكشف بصراحة عن نصوص هذه الاتفاقية بل عمدت الحكومة البريطانية الى تنفيذ أهم بنود هذه الاتفاقية التي لم يجف حبرها بعد والحرب مازالت قائمة . ونعني بذلك وعد بلفور الذي صدر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ والذي بموجبه منحت بريطانيا اليهود حق تأسيس دولة صهيونية في أرض فلسطين العربية(٣٢) .

وعلى أية حال تُمّ كشف الأتفاقية من قبل زعماء الثورة الروسية في تشرين الثاني ١٩١٧ ، وكان ذلك فضيحة لاغبار عليها بالنسبة لبريطانيا وفرنسا ، الا أن كلتا الدولتين ـ وبالذات بريطانيا ـ تمكنت الى حد ما من تخفيف موجة السخط الصارمة التي أجتاحت المشرق العربي ، وذلك من خلال الأساليب الملتوية والوعود الغامضة التي تفننت في صياغتها والتي كانت توجهها للشريف حسين أو غيره من الزعماء العرب دون أدنى حياء . وقد أنطلت على البعض كما هي الحال بالنسبة للشريف حسين ، أذ أستمر على موقفه السابق ولم يعر أهتمامه لدعوة الصلح التي وجهها الاتراك بعد اكتشاف أمر الاتفاقية . على ان الموقف الحرج والدقيق الذي أحاط بالعرب في تلك الفترة وصعوبة اتخاذ موقف حاسم بعد الشوط الطويل الذي قطعته الأحداث في المنطقة حال هو الآخر دون شك لأن تأخذ التطورات في المنطقة طريقاً كان للقوي شأنه في تحديد اتجاهاته(٣٣) .

هكذا تلاحقت الأحداث في المشرق العربي ، وبالرغم من فداحتها ، فأن العرب وفي مقدمتهم الشريف حسين كانوا يتوقعون حسم كل الخلافات بعد الحرب كما وعدت بذلك بريطانيا .. وهذا ما سعى العرب الى تحقيقه بعد انتهاء الحرب في مؤتمر الصلح الذي أنعقد في باريس عام ١٩١٩ لتصفية ما خلفته الحرب من مشاكل وأوضاع .

٥ ـ العرب ومؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩

ا ـ عرض القضية العربية أمام المؤتمر :

ما ان وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى شرعت الوفود الدولية تتجه صوب باريس حيث مقر انعقاد مؤتمر الصلح الذي تقرر عقده بداية عام ١٩١٩ لتسوية المشاكل الناجمة عن الحرب وقد مثل العرب في هذا المؤتمر الأمير فيصل الذي رشحه والده ممثلاً عن مملكة الحجاز التي دُعيت لحضور المؤتمر من قبل بريطانيا بصفتها حليفة ساهمت في الحرب .

لقد كان موقف الامير فيصل حرجاً للغاية سواء بالنسبة له أو للحلفاء اذ لم تكن هناك فكرة لدى فيصل عن مفهوم الحلفاء لمركز والده . فقد اراده هؤلاء ان يكون ممثلاً عن مملكة الحجاز بينما اراد فيصل ان يكون ممثلاً عن مملكة الحجاز والبلاد العربية . وهنا ارتطم الوفد الحجازي بواقع السياسات الدولية خاصة بالنسبة لكل من انكلترا وفرنسا ومطامعهما في البلاد العربية . ناهيك عن المشكلة الفلسطينية والأنتداب على البلاد العربية وهذا ما تمثل في نشاطات فيصل في باريس[٦٤] .

واجه فيصل منذ وصوله الأراضي الفرنسية في ٢٦ / ١١ / ١٩١٨ ، موقفاً فرنسياً مجافياً . وأبلغ بأن الحكومة الفرنسية لا تستطيع ان تعده ذا صفة تمثيلية أو رسمية . وبعد جولة قصيرة في فرنسا توجه فيصل الى لندن للأجتماع بالمسؤولين البريطانيين قبل حضور المؤتمر وفي لندن تكشفت له ألاعيب السياسة الأستعمارية في بلاده . اذ كان النقاش على أشده بين (لويد جورج) رئيس الوزراء البريطاني و (كليمنصو) رئيس الوزراء الفرنسي بشأن غنائمهما في المشرق العربي ، التي تضمنتها أتفاقية سايكس ـ بيكو .[٦٥]

كما واجه فيصل التفافاً مكثفاً من قبل المسؤولين البريطانيين والزعماء الصهاينة لتوقيع على اتفاقية تفسح المجال امام الأستيطان اليهودي في فلسطين . غير ان الأمير فيصل لم يكن يملك الصلاحية الا ما أمر به والده في الأصرار على الوعود البريطانية للعرب لذا فانه عالج الموقف بأسلوب لا يفتقر الى الفطنة . فجعل موافقته على استيطان اليهود في فلسطين مرتبطة بانجاز بريطانيا لعهودها التي قطعتها في أمر استقلال البلاد العربية بما فيها فلسطين طبعاً . والحقيقة ان فيصل اتخذ الموقف

الأخير بهدف الحصول على دعم بريطانيا لموقفه في المؤتمر تجاه المطامع الفرنسية في بلاد الشام .(٢١)

وعلى أية حال أنتقل فيصل الى باريس في ٩ كانون الثاني للمشاركة في المؤتمر رغم رفض الحكومة الفرنسية . وذلك بعد أن تدخلت الحكومة البريطانية في الأمر ، ومنح وفد الحجاز مقعدين بين الوفود المشاركة وكان فيصل قد رفع مذكرته الأولى للمؤتمر منذ ١ كانون الثاني ١٩١٩ عرف فيها الحضور بالبلاد العربية وبحدودها الجغرافية التي حددتها مراسلات والده مع السير هنري مكماهون . وأكد على ان سكان المنطقة يشكلون شعباً متلاحم الانساب ولغته واحدة هي اللغة العربية ، وان طموحهم هو الوحدة وثقة والده من انتصار هذه الوحدة . ومع ان المذكرة تضمنت اشارة الى امكانية الأستعانة بالخبرة الأجنبية لاحدى الدول الكبرى لتطوير امكانيات بعض أجزاء الدولة العربية المنشودة الا أنها طالبت « أن تكون الحكومة عربية في المبدأ والروح » .

وفي اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني ١٩١٩ تقدم فيصل بمذكرة ثانية طالب فيها الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم في المنطقة المعروفة اليوم بالمشرق العربي ، وأبدى موافقته لمراعاة بعض الاعتبارات الخاصة بكل قطر عربي عند تشكيل الدولة العربية الموحدة بالشكل الذي يعني موافقته على فكرة الأتحاد الكونفدرالي بين أقطار المنطقة كمرحلة أولى قبل قيام الوحدة بين هذه الأقطار . واكد على ثقته بحرص الدول الكبرى على حقوق العرب ومصالحهم ، كما أرفق بالمذكرة نسخة من مبادىء الرئيس الأميركي « ولسن » التي أكد فيها على حرية الشعوب في تقرير مصيرها وكان هدفه من ذلك دعم موقفه في المذكرة ، والرغبة في الحصول على دعم الرئيس الاميركي الذي حضر المؤتمر بنفسه .

١٩١٩/٢/٦

وفي اليوم السادس من شهر شباط تمكن فيصل شخصياً من عرض قضيته أمام مؤتمر الصلح في مقر وزارة الخارجية الفرنسية . وكان خطابه بمثابة توسيع للمذكرة السابقة . وبين ان اشتراك والده والعرب في الحرب لم يكن للحصول على منافع مادية خاصة .. وأنما لأن يفي الحلفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم في السابق .

وقد بيّن فيصل رأيه بقضية الأنتداب وتطبيقه على البلاد العربية . وذلك في اجابته على استفسار الرئيس الأميركي الذي تضمن هذا الموضوع ، اذ قال فيصل أنه

جاء الى باريس ليطالب باستقلال شعبه وبحقهم في أختيار مصيرهم .. وأنه « شخصيا كان يخشى تجزئة البلاد العربية . كان هدفه وحدة العرب وفي سبيل الوحدة حارب العرب ، وأي حل غير هذا الحل يمكن أن يعتبره العرب نوع من تقاسم الأسلاب بعد المعركة .. كان العرب يطالبون بالحرية ولا يرضون عنها بديلاً ، فقد كان العرب أمة قديمة متحضرة منظمة في زمن لم يكن فيه للدول الممثلة في هذه القاعة الآن من وجود . »(٦٧)

موقف الدولي من المطاليب العربية :

لقد أتضح منذ البداية أن محور المشكلة الذي تدور فيه القضية العربية هو مصير بلاد الشام (سوريا ، لبنان ، فلسطين) وعزم فرنسا على أحتلالها دون الأخذ بمطاليب العرب القومية . ولما اخذت المفاوضات بهذا الشأن تقود الى باب مسدود شرعت الدول الكبرى بالتفتيش عن وسائل أخرى لتسوية الأمر . فقد جرى عرض القضية في ١٣ شباط في مقر وزارة الخارجية من قبل الدول الكبرى ، وأستدعي الدكتور (هوارد بلس) رئيس الكلية الأنجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية في بيروت الآن) ليدلي برأيه حول القضية بأعتباره أحد الشخصيات التي تتمتع بخبرة واسعة باوضاع سورية فضلاً عما يتمتع به من ثقة الأهلين . وقد أكد هذا على ضرورة أستجلاء موقف أهالي سورية أزاء مصيرهم كأفضل أسلوب لحل المشكلة وهو موضوع كان أقترحه الأمير فيصل بداية حضوره لمؤتمر الصلح وحاول الأجتماع بالرئيس ولسن حينها بهذا الشأن .(٦٨)

تم عقد أجتماع آخر للدول الكبرى في ٢٠ آذار ١٩١٩ غير أن هذا الاجتماع لم يتخمض عن نتيجة بسبب أطماع كل من فرنسا وأنكلترا . وبعد أن فرغ صبر الرئيس ولسن وفي ساعة كان فيها شديد الامتعاض صرح بعدم اكتراث بلاده لأدعاءآت كل من فرنسا وبريطانيا لفرض سيطرتهم على سكان المنطقة دون رغبتهم وبيّن « أن المبدأ الجومري الذي تلتزم به الولايات المتحدة هو موافقة الشعوب المحكومة » وبان الطريقة الوحيدة لمعالجة هذه القضية هي الاطلاع على رغائب سكان هذه المناطق وعليه اقترح الرئيس ولسن « أختيار أفضل الناس من ذوي الخبرة والمؤهلات لتشكل منهم لجنة مختلطة تمثل الحلفاء تذهب الى سوريا وأذا حملتهم تحقيقاتهم على توسيع النطاق فالى ما وراء حدود سورية » . وقد حدد الرئيس ولسن صلاحيات هذه اللجنة .

بقى هذا المقترح الحل الوحيد لمواجهة القضية السورية بعد ان ظلت فرنسا تصر على أحتلال بلاد الشام . ولم تنفع المحاولات الرامية لتسوية الموقف قبل ارسال لجنة التحقيق الى سورية . وأستقر الأمر نهائياً على أعتماد قرارات اللجنة لتحديد مستقبل بلاد الشام .(٦٩)

جـ ـ الموقف العربي تجاه الأطماع الفرنسية والبريطانية :

ترك فيصل باريس الى سوريا دون أن يتوصل الى نتيجة بشأن مستقبل البلاد العربية وفي مقدمتها مستقبل بلاد الشام ، على أمل أن تعالج اللجنة المقترحة هذه الأمور بعد تقصيها حقيقة موقف سكان المنطقة تجاه مصيرهم ومستقبلهم السياسي ـ غير أن عودة فيصل الى سوريا شهدت تطورات جديدة على صعيد الموقف العربي حيال المخططات الاستعمارية وأهدافها في المنطقة ، وبدت الأجواء السياسية في سوريا أكثر تحفزاً لمعرفة الموقف الصريح لكل من بريطانيا وفرنسا . وأصبح لزاماً على فيصل أن يعلم الناس بمجريات الأمور ، وقد أختار موقفاً حذراً ولم يبح بخيبة أماله ومخاوفه الا لنفر يسير من أعوانه بينما كان في أحاديثه العلنية يؤكد على الأمال المرتقبة التي ترتبط بقدوم لجنة التحقيق الدولية .(٧٠)

وعلى أية حال فأن بعض أبعاد الموقف البريطاني والفرنسي أصبحت واضحة لأثارة سخط العرب ودفعتهم لأستئناف النشاط القومي ضد بريطانيا وفرنسا هذه المرة . فقد تقدم جماعة من الزعماء العرب باقتراح لتشكيل مجلس وطني كواجهة للتصدي للمخططات الأستعمارية وكان مدبرو هذا الأقتراح أعضاء حزب حديث التكوين يسمى بحزب الأستقلال العربي ولم يكن سوى جمعية العربية الفتاة في لباس جديد . وقد حظيت بتأييد فيصل الذي حاول توجيهها وجهة دستورية . وتمكنت هذه الحركة من اجراء الأنتخابات في كامل سوريا بما فيها لبنان وفلسطين وشكلت في ضوء ذلك المجلس الذي سمي منذ عهدئذٍ بأسم المؤتمر السوري العام في دمشق في ٢ / ٧ / ١٩١٩ . وقد أجتمع هذا المؤتمر عدة أجتماعات لدراسة الموقف الجديد وخرج بمجموعة من القرارات التي تحدد الاهداف القومية فيما يتصل بسوريا وفلسطين والعراق وأقرت بأجماع لامثيل له . وقد جاءت هذه القرارات في عشر مواد نذكر أيجازها بما يأتي :

١ ـ الأعتراف باستقلال سوريا بما في ذلك فلسطين دولة ذات سيادة على رأسها الأمير فيصل ملكاً والاعتراف باستقلال العراق .

٢ ـ الغاء أتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور وأي مشروع لتقسيم سوريا وأنشاء دولة يهودية في فلسطين .

٣ ـ رفض الوصاية السياسية التي تضمنتها النظم الأنتدابية المقترحة وقبول المعونة الاجنبية لفترة محدودة على شرط أن لا تتعارض مع الاستقلال الوطني والوحدة القومية .. وتفضل المعونة التي تقدمها أميركا فأن لم تتيسر فالمعونة البريطانية .

٤ ـ رفض المعونة الفرنسية في أي شكل جاءت .

أن أهمية هذه القرارات تكمن في كونها تعبيراً جازماً عن موقف العرب من قضايا الساعة يومئذ اذ كان المؤتمر مجلساً تمثيلياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأن القرارات التي أمضيت فيه تعد ـ بأطمئنان ـ معبرة عن الآراء والعواطف التي كانت تسود الأكثرية .

كانت هذه هي الأوضاع التي سادت سوريا في تلك الفترة . حينما وصلت لجنة التحقيق الدولية المعروفة بلجنة كنج ـ كرين .[٣١]

د ـ لجنة كنج ـ كرين :

كانت الدول الكبرى قد أتفقت على أن تعين كل دولة من جانبها عضوين يمثلانها في اللجنة التي اقترح أرسالها الى سوريا .

وأختار الرئيس ولسن الدكتور هنري كنج رئيس كلية أوبرك الأميركية والمستر تشارلس كرين الذي اهلته لتلك المهمة تجربته الواسعة واستقلاله في النظر . اما الحكومة البريطانية فقد عينت السير هنري مكماهون والقائد د. ج. هوغارث وهما من كبار المسؤولين البريطانيين في القاهرة اثناء الحرب العالمية الاولى . ولم تبد الحكومة الفرنسية ميلاً للمبادرة لاختيار ممثليها . وقد تخلت بريطانيا هي الاخرى فيما بعد عن مشاركتها في اللجنة فاقتصرت على العضوين الاميركيين ومن هنا جاءت تسميتها بلجنة كنج ـ كرين[٣٢] .

وصلت اللجنة الى سوريا في ١٠ حزيران ١٩١٩ وقد قامت بتحقيق وافٍ في معظم الولايات التي تشكل بلاد الشام حتى انتهت من أعداد التقرير وسلمته الى سكرتارية الولايات المتحدة في باريس في ٢٨ آب ١٩١٩ في حين رفعت نسخة منه الى الرئيس ولسن في فترة لاحقة .

عبرت اللجنة عن آيثارها نظام الأنتداب عن سوريا (ومن ضمنها فلسطين) والعراق على شرط ان يكون الأنتداب لمدة محدودة وأن يهدف الى أيصال البلاد الخاضعة له الى مرحلة الأستقلال بالسرعة التي تسمح بها الظروف وأوصت ان يعتبر العراق قطراً واحداً وان تظل لسوريا (من ضمنها فلسطين) وحدتها كذلك على أن يمنح لبنان الحكم الذاتي داخل اطار الوحدة السورية . وان يكون للعراق أنتداب واحد ولسوريا وفلسطين أنتداب واحد وان يكون الحكم في كل منهما ملكياً دستورياً فيصبح فيصل ملكاً في سوريا وينتخب سلطان عربي آخر عن طريق الأستفتاء ليحكم العراق .

أما في مسألة أختيار الدولة المنتدبة فقد وجدت اللجنة أن اجماع الرأي في سورية يرفض الحماية التي تسمى باسم « انتداب » وأنه يميل بقوة الى « المعونة » على شرط أن تجيىء من الولايات المتحدة . فأن لم تتيسر فلتكن بريطانيا العظمى ولكن ليس من فرنسا بأية حال . وبعد أن أنتهى المندوبان من هذه المعلومات أوصيا بمفاتحة كل من أميركا وبريطانيا برغبة الأهالي كدولة منتدبة ووجدا أنهما لا يستطيعان التوصية بأنتداب فرنسي لان ذلك قد يؤدي الى حرب بين العرب والفرنسيين .

أما بشأن فلسطين فقد أوصيا بتحديد المطامع الصهيونية . ذلك أنهما وجدا أن الصهاينة يتطلعون الى أنتزاع الملكية أنتزاعاً عملياً تاماً من أيدي غير اليهود وبأنواع مختلفة من ضروب الأحتيال . وبيّنا ان مثل هذا العمل يُعد انتهاكاً بالغاً لحقوق السكان والمبادىء التي تنادى بها الحلفاء والرئيس ولسن ... ومن ثم فأنهما يجدان نفسيهما ملزمين ان يوصيا بان يختصر البرنامج الصهيوني . وأن تحدد الهجرة اليهودية وان تطرح فكرة جعل فلسطين دولة يهودية .(٣٢)

لقد كان من المتوقع أن يأخذ تقرير اللجنة طريقه الى المعنيين للعمل بمضمونه الا أنه أودع في زاوية أحد الأدراج وأغفلوا أمره ولم يعمل به حتى في واشنطن

نفسها . وقد مضى عليه قبل أن ينشر على الناس ثلاث سنوات خلقت بريطانيا وفرنسا في أثنائها « تسوية من لدنهما وفرضتاها فرضاً دون الأخذ بنصائح اللجنة . خصوصاً وأن الرئيس ولسن لم يطلع على التقرير بشكل واف رغم معرفته بخلاصته . أذ ان الرئيس كان قد سافر في رحلة خطابية للفوز بالانتخابات تلك الرحلة التي أنتهت بمرضه الذي أقعده نهائياً عن العمل . فأحبطت مهمة اللجنة من خلال هذه الظروف .

والحقيقة أن هذا التقرير يعد وثيقة ذا أهمية بالغة بأعتبارها المصدر الوحيد الذي يمثل موقفاً نزيهاً موضوعياً للمشاعر السائدة بين العرب تلك الفترة . وهو المحاولة الوحيدة التي بذلت نيابة عن مؤتمر الصلح للتعرف على الأماني القومية للعرب . ومما زاد في قيمته أنه تم على يد هيئة ليست لديها عموماً مطامع قومية تود الترويج لها فضلاً عمّا تمتع به الرجلان كنج وكرين من استقلال في الحكم ونفاذ البصيرة ورجاحة العقل في ادارة مهمتهما على الوجه الصحيح والمنصف .(٧٤)

٦ ـ مؤتمر سان ريمو ونظام الأنتداب :

أ ـ فرض الأنتدابات على أقطار المشرق العربي :

بينما كانت لجنة التحقيق تقوم باعمالها عمدت بريطانيا الى محاولة أخيرة لتسوية المشكلة . فدعا لويد جورج الأمير فيصل في آب ١٩١٩ لزيارة لندن بهدف اقناعه لقبول الأحتلال الفرنسي للبنان وسحب القوات البريطانية من هذه المنطقة . كما كان جورج يهدف بهذه الدعوة الى وضع الأمير فيصل للتفاوض مع كليمنصو بهذا لشأن ، رغم أن بريطانيا كانت تدرك أن فرنسا كانت تخطط لاحتلال بلاد الشام وليس لبنان وحده . وبهذا الأسلوب أنما أرادت بريطانيا أن تتملص من التزاماتها تجاه العرب وتركهم لوحدهم في مواجهة فرنسا . وعلى أية حال فأن فيصل أضطر في تشرين الثاني ١٩١٩ الى الاتفاق مبدئياً مع كليمنصو وبدا وكأن المشكلة قد سويت عند هذا الحد . هذا في الوقت الذي بدأت فيه القوات البريطانية تستعد للانسحاب من المنطقة ابتداءاً من الاسبوع الأول من تشرين الثاني ١٩١٩ .(٧٥)

أثارت هذه التطورات سخط الرأي العام في سوريا ضد الحلفاء وأنتقد الزعماء السياسيون فيصل على الأتفاق الأخير رغم ما أحاطته من ضغوط . وعلى أية حال فأن

الهياج العام قاد مجدداً الى أنعقاد المؤتمر السوري في ٨ آذار ١٩٢٠ . وأصدر قراراً أعلن فيه أستقلال سوريا بما فيها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة وملكية دستورية على رأسها الملك فيصل . وأجتمع الزعماء العراقيون وأصدروا قراراً مماثلاً عن العراق وأختاروا الأمير عبد الله ملكاً على العراق . وأضيف الى القرار بند يحفظ للبنان حقه المكتسب في الحكم الذاتي داخل أطار الوحدة السورية وأن يعتمد كيان الحكومة في كل من العراق وسوريا على أساس اللامركزية .(٣٦)

لقد رفضت الحكومتان البريطانية والفرنسية قرار دمشق الأخير . وعمدتا الى عقد أجتماع مبكر للمجلس الأعلى لدول الحلفاء ودعتا فيصل الى أوربا لمناقشة الموقف ، غير أن تلاحق الاحداث كما سيتضح حال دون ذلك وقاد الأمور باتجاه آخر . فقد أجتمع مؤتمر الحلفاء الأعلى في مدينة سان ريمو في أيطاليا في ١٩ نيسان ١٩٢٠ وحسم الموقف نهائياً وبما يتماشى وأهداف كل من فرنسا وبريطانيا في المشرق العربي . هذا وقد حضر المؤتمر كل من بريطانيا وفرنسا وأيطاليا وممثلون عن اليابان وأستمر في أعماله حتى السادس والعشرين من نيسان ١٩٢٠ .

كان الهدف الرئيس من المؤتمر وضع صيغة معاهدة (سيفر) معاهدة الصلح مع تركيا التي تم أعدادها مبدئياً في باريس . وقد انتهى المؤتمر من ذلك بعد ست جلسات عقدت بين ١٩ ـ ٢٤ نيسان . وبقدر ما يتعلق الأمر بالمنطقة العربية ، كانت المادة ٩٤ من المعاهدة تنص على ما يأتي ، « يوافق الطرفان المتعاقدان الساميان على ان تكون سوريا والعراق ، وفقا للفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من الجزء الأول (من ميثاق عصبة الأمم) بلدين مستقلين معترفاً بهما أعترافاً مؤقتاً على أن تتلقيا العون والمشورة في الأدارة من قبل دولة منتدبة الى أن يحين الوقت عندما تجد الدولتان أنهما بغنى عن مثل هذا العون والمشورة ... » . وعلى هذا الأساس وفي الخامس والعشرين تم توزيع الأنتداب على العراق وفلسطين وسوريا . وكانت هذه البلدان تقع تحت الأنتداب من فئة A. وكانت الدول المنتدبة التي « أختارتها الدول الحليفة الكبرى ، فرنسا على سوريا (بما في ذلك لبنان) وبريطانيا على العراق وفلسطين .(٣٧)

كان هذا النظام السياسي الجديد تطبيقاً لما نصت عليه المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم التي تمت المصادقة عليها في ٢٨ نيسان ١٩١٩ والتي ضمن ما جاء فيها « أن رفاهية شعوب المستعمرات وتنمية مواردها تستلزمان رعاية الدول

المتقدمة التي ، أستناداً الى مواردها والى خبرتها ، أو أستناداً الى موقعها الجغرافي ، تستطيع أن تتولى هذه المسؤولية على أتم وجه ، والتي تبدي أستعداداً لقبول تحمل هذه المسؤولية ، على أن تمارس هذه الدولة رعايتها بصفتها دولاً منتدبة من قبل عصبة الأمم ... »

أما الفقرة الرابعة التي تضمنتها المادة ٢٢ والتي تدخل في صميم المبادىء التي سار عليها مؤتمر سان ريمو فقد نصت على ما يأتي ، « أن بعض الشعوب التي كانت فيما مضى تابعة للامبراطورية العثمانية قد بلغت في مرحلة من التقدم بحيث يمكن الأعتراف بها كبلدان مستقلة أعترافاً مؤقتاً على أن تتلقى العون والمشورة في المسائل الأدارية من قبل دولة منتدبة الى أن يحين الوقت الذي تستطيع فيه هذه الشعوب أن تستغني عن مثل هذا العون والمشورة ويجب أن تؤخذ رغائب هذه الشعوب بعين الاعتبار عند اختيار الدولة التي ستتولى الانتداب عليها .. »(٧٨)

ولا بد من الأشارة الى أن المؤتمر أضاف فقرة للانتداب البريطاني في فلسطين تنص على أن الأنتداب على فلسطين سيلتزم بتطبيق وعد بلفور .(٧٩)

أما الحدود بين مناطق الأنتداب فقد تم تخطيطها نهائياً عن طريق أتفاق عقدته حكومتا فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٢٣ كانون الأول ١٩٢٠ . وعندما أقرت عصبة الأمم في ٢٤ تموز ١٩٢٢ قرار سان ريمو بتوزيع الأنتداب كان تخطيط الحدود الأقليمية قد سوي تماماً بين الدولتين المنتدبتين .(٨٠)

لقد تم البت في أمور البلاد العربية في المؤتمر دون حضور ممثلين عرب على الرغم من الوعد الصريح الذي أعطي لفيصل بأسم حكومتي بريطانيا وفرنسا بانه لا يمكن أتخاذ قرار نهائي الا بعد أجراء المشاورات معه . وقد جاء بعض أعوان الملك فيصل مثل رستم حيدر ونوري السعيد ونجيب شقير الى سان ريمو وأجروا أتصالات وحثوا على ضرورة الأخذ برغبات الأهلين في الدولة التي ستنتدب عليهم بعين الاعتبار ولكن حججهم لم تجد آذاناً صاغية ولم تؤد الى نتيجة ورفض أعضاء المؤتمر أن يعترفوا للمندوبين العرب باي صفة رسمية ولم يسمحوا لهم بعرض آرائهم رسمياً ، بينما كان للصهيونين عملاء من ذوي الكلمة النافذة يحيطون بالوفد البريطاني .(٨١)

وجدير بالذكر أن الموقف الأميركي الذي علق عليه العرب آمالهم في عام ١٩١٩ كان بعيداً عن هذه التطورات . فقد نسيت الولايات المتحدة الاميركية مبدأ تقرير المصير ونسيت مثالياتها وأعترفت بالأنتداب على فلسطين عام ١٩٢٣ وعلى سوريا عام ١٩٢٤ . ومما تجدر اليه الاشارة أيضاً أن الرئيس ولسن أصيب في خريف ١٩١٩ بشلل جزئي ونشب خلاف بينه وبين مجلس الشيوخ الأميركي الذي رفض تصديق معاهدة فرساي (الصلح مع المانيا) في ١٩ تشرين/الثاني ١٩١٩ . بهذا انسحبت الولايات المتحدة الأميركية عن مجلس الحلفاء الأعلى وأصبحت السياسة الأميركية الخارجية في حالة تجمد مما أتاح لبريطانيا وفرنسا تسوية قضايا بلاد العرب على هواهما فيما بعد .(٨٣)

ب ـ المواجهة العربية لقرارات سان ريمو :

لقد كانت قرارات سان ريمو ترسيخاً للاتفاقات السرية التي عقدت آبان الحرب وتنسيقاً للمصالح الأستعمارية وتثبيتاً لواقع الأحتلال العسكري ، ونتيجة نهائية للمساومات التي بدأت بأنتهاء الحرب ، أما نظام الانتداب الجديد فلم يكن باعتراف (لويد جورج) نفسه سوى « بديل عن الاستعمار القديم » .

وعلى أية حال ما كاد المؤتمر ينقضي حتى بدأت العلاقات بين الفرنسيين والعرب تزداد سوءاً كنتيجة طبيعية لتطور الموقف ، وكرد فعل للأستهانة التي عبرت عنها سياسة الحلفاء على أحسن الوجوه في قرار المؤتمر الأخير . فبدأت الصدامات تتلاحق بين القوات العربية والفرنسية حتى أتخذت طابع الواجهة الحقيقية في تموز ١٩٢٠ ، حينما وجه الجنرال (غورو) قائد لقوات الفرنسية في لبنان في ١٤ من نفس الشهر انذاره النهائي ، لفيصل ملك سوريا ، الذي تضمن خمسة شروط كان على العرب الأمتثال لها خلال أربعة أيام والا ستكون الحكومة الفرنسية مطلقة اليد في العمل . أما الشروط التي تضمنتها فهي :

١ ـ تسليم سكة حديد رياق ـ حلب الى السلطة العسكرية الفرنسية . وهذا سيجر في أثره أحتلال الفرنسيين لمدينة حلب ، ومحطات رياق وبعلبك وحمص وحماه .
٢ ـ الغاء التجنيد وتخفيض عدد الجيش العربي .
٣ ـ قبول الأنتداب الفرنسي قبولاً غير مشروط .

٤ ـ تداول العملة التي فرضتها الأدارة الفرنسية .
٥ ـ معاقبة الأشخاص الذين عرفوا بالتورط في « الأعمال العدائية » ضد الفرنسيين . (٨٣)

والحقيقة أن نص الأنذار كان يخفي وراءه دوافع أخرى وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقة ، أذ أن الفرنسيين كانوا قد عقدوا العزم في أية حال أن يمدوا أحتلالهم العسكري ليشمل بقية سورية ، وان ذلك البلاغ لم يكن سوى سعي تكتيكي لبلوغ تلك الغاية . وهذا ما حصل بالفعل بعد عدة أيام ، حيث تقدمت القوات الفرنسية بأتجاه دمشق وتمكنت في ٢٤ تموز ١٩٢٠ من التغلب على المقاومة العربية بفضل الأسلحة والأمكانيات العسكرية التي كانت تمتلكها القوات الفرنسية . وكانت المعركة الفاصلة التي حسمت الموقف وفتحت الباب الى دمشق هي معركة ميسلون حينما أصطدمت القوة العربية التي كان يقودها يوسف العظمة وزير الدفاع بالقوات الفرنسية الزاحفة عند ممر ميسلون . غير أن الوقفة البطولية للمقاومة العربية لم تفلح في أيقاف القوات الفرنسية ذات الأمكانيات الضخمة فأستشهد الكثير من المقاتلين العرب وفي بدايتهم يوسف العظمة . فسقطت بذلك الحكومة العربية في دمشق وغادر فيصل سوريا في ٢٨ تموز متجهاً الى أوربا بهدف مواصلة النشاط السياسي بشأن القضية العربية . (٨٤)

وفيما كانت المقاومة العربية تؤدي دورها في سوريا شهدت أقطار المشرق العربي الأخرى انتفاضات عربية مماثلة ضد الساسية الاستعمارية التي نفذتها فرنسا وبريطانيا في المنطقة . فقد اندلعت في القدس اضطرابات جراء الاوضاع التي كانت تخططها الصهيونية وبريطانيا . فيما كان الغليان الشعبي واضحاً في العراق وكان يمهد لثورة عارمة لم تقدر الحكومة البريطانية مداها وتأثيرها وهذا ما تمثل في ثورة العراق التحررية (ثورة العشرين) التي أندلعت في حزيران ١٩٢٠ . ولم تتوقف حتى كبدت بريطانيا الخسائر الفادحة بالمال والأرواح كما سيتضح فيما بعد .

ان الأحداث الخطيرة الأخيرة والخسائر الكبيرة الناجمة عنها ـ وبالذات ثورة العشرين ـ أضافة الى عزم بريطانيا على رسم مستقبل سياستها في الشرق الاوسط والسبل الكفيلة بدعمها ، دفعت بالمسترتشرشل وزير المستعمرات الى عقد مؤتمر في القاهرة في آذار ١٩٢١ دعا فيه معظم المسؤولين البريطانيين في المنطقة العربية الى إتخاذ التدابير الكافية لدعم السياسة البريطانية ومصالحها فيها . وقد اتخذ المؤتمر في

١٢ آذار ١٩٢١ عدة قرارات كان لها أثرها في بعض التغييرات التي طرأت على طبيعة الأوضاع السياسية لبعض الاقطار العربية . اذ أقر المؤتمر تسليم أدارة العراق الى حكومة عربية وتعيين فيصل ملكاً عليها والدخول في مفاوضات مع الحكومة العراقية لإبرام معاهدة تحالف تحل محل الانتداب . وكان هذا القرار قد أتفق بصورة مبدئية في المباحثات التي جرت في لندن بين فيصل والمسؤولين البريطانيين بعد خروجه من دمشق في تموز ١٩٢٠ .

كما وافق تشرشل على تشكيل ادارة عربية في المنطقة الكائنة شرق نهر الأردن (الاردن حالياً) ويتولى حكمها الأمير عبد الله . وقد تمت هذه الموافقة بعد الاجتماع الذي عقده تشرشل مع الأمير عبد الله في القدس في ٢٨ ـ ٣٠ آذار ١٩٢١ . والحقيقة ان الموقف البريطاني الاخير بشأن شرقي الأردن جاء بمثابة أجراء لتلافي المشاكل والصدامات التي قد يسببها نشاط القوات العربية في هذه المنطقة التي كان يقودها الأمير عبد الله بعد أن عزم على أخذ الثأر لأخيه فيصل من القوات الفرنسية في سوريا . وعلى أية حال فان التسوية الأخيرة أظهرت للوجود كياناً عربياً آخر سمي بأمارة شرقي الأردن . (٨٥)

وعلى أية حال ـ وبالرغم من التطورات الأخيرة ـ فان الأحداث كانت تسير بالاتجاه العام الذي رسمته أتفاقية سايكس ـ بيكو . فأصبح العراق وشرق الأردن وفلسطين تحت الأنتداب البريطاني في حين واجهت سوريا الأنتداب الفرنسي . فكان هذا هو حال البلاد العربية وهي تنفض عنها غبار الأحداث المزدحمة لتواجه مرحلة جديدة من التطورات السياسية .